التقديم والتأخير في سورة البقرة

د. أحمد قاسم كسار

مقدمة:

الحمد لله الذي علّمنا ما لم نعلم، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وبعد:

لقد بدأ هذا البحث بفكرة دراسة موضوع: (دواعي تقديم المسند إليه في القرآن الكريم)، ثم تركزت الفكرة في تخصيصه بسورة البقرة، ثم استقر الرأي في تناول موضوع التقديم والتأخير في سورة البقرة، فجعلت آيات سورة البقرة نصب عيني، واطلعت على مصادر في التفسير والنحو والبلاغة لتناول هذا الموضوع ذي الصلة المباشرة بهذه العلوم، فجعلت الحديث أولاً بين يدي هذه السورة، ثم تطلّب البحث أن أقسمه إلى فصلين، الأول للنحو، والآخر للبلاغة، وخاتمة، فقائمة للمصادر والمراجع.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج النظري (المكتبي)، وإن كان في حقيقته تطبيقياً على آيات سورة البقرة، فضلاً عن الاستعانة بالمنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي، وحددت البحث بسورة البقرة فاخترت منها الأمثلة التطبيقية من الآيات الكريمة.

ولهذا البحث دراسات سابقة، فقد تناوله الباحثون من قبل، ولكنَّ بعضها كان متوسعاً في شواهده المختارة من القرآن الكريم كله، مما يصعب نشر مثل تلك الأعمال الجليلة في بحوث المجلات المحكمة والمركزة، منها دراسة الدكتور محمود السيد شيخون في: (أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم)، ومنها دراسة لأطروحة ماجستير بعنوان: (الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة: دراسة تطبيقية)، لخالد بن محمد بن إبراهيم العثيم، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وقد جاءت في (٥٢٣) صفحة، وقد اتسعت هذه الدراسة بسبب التمهيدات والفهارس، والإطالة في سرد النصوص من أقوال العلماء ومناقشتها، وكذلك الاستعانة بالشواهد القرآنية من السور الأخرى، فضلاً عن ذلك كله، فقد اطلعت على هذه الدراسة بعد انتهاء البحث وتحكيمه، فبحثي بالتركيز الذي اخترته، والتحديد الذي انتهجته، من خلال التقيد بموضوع التقديم والتأخير وحصره بسورة البقرة فقط، جعلني أكثر التزاماً بمادة علمية مقدمة للنشر في مجلة محكمة.

وأقول: إنَّ من مظاهر الإعجاز في أسلوب القرآن الكريم ما يعرف بـ(التقديم والتأخير)، وهو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر بك عن

بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه... ثم تنظر فتجد سبباً إن راقك ولطف عندك أنْ قُدِّم فيه شيء وحُولِ اللفظ عن مكان إلى مكان[1].

والتقديم والتأخير نافذة مشتركة بين علمي النحو والبلاغة، فتجده في كتب النحو في أبواب المسند والمسند إليه، وتجده في كتب البلاغة في موضوعات علم المعاني، فالتقديم والتأخير قد جمعا أكثر من تخصص علمي، وأثبتا صلة العلاقة وقوتها بين النحو والبلاغة.

وقضية التقديم والتأخير ليست بجديدة على اللسان العربي، فتسعف هذه القضية شواهد الشعر الجاهلي قبل الإسلام، فمن ذلك قول امرئ القيس ت٥٦٥م[2]:

ولو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني –ولم أطلب – قليلٌ من المال

يريد بذلك: كفاني قليلٌ من المال، ولم أطلب كثيراً، وذلك من معنى التقديم والتأخير[3].

التمهيد: بين يدي السورة:

١. سبب تسميتها:

وردت قصة البقرة بعد الآية السادسة والستين في هذه السورة، وقصة البقرة من نعم الله تعالى على بني إسرائيل في شأن البقرة وبيان القاتل مَنْ هو، وإيحاء الله تعالى للمقتول بإذنه ونصّه على مَنْ قتله منهم[4]، واختلفوا في هذا الاسم، فأجازه بعضهم، وكرهه بعضهم، وقالوا: نقول السورة التي تذكر فيها البقرة[5].

٢. أسماؤها:

الفسطاط؛ وذلك لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها[6]، ولما جمع فيها من الأحكام التي لم تذكر في غيرها[7]، والسنام؛ وسنام كل شيء أعلاه[8]،

---

١ دلائل الإعجاز: ١٣٧.
٢ انظر: ديوان امرؤ القيس، الموسوعة الشعرية الشاملة.
٣ انظر: تفسير الطبري: ١٦٤/١.
٤ انظر: تفسير ابن كثير: ١١٢/١.
٥ انظر: فتح الباري: ٤٦٤/١٠.
٦ انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١.
٧ انظر: الإتقان: ٥٠/١.
٨ انظر: المصدر نفسه.

والزهراء؛ لحديث: [اقرأوا الزهراوين[1]: البقرة وآل عمران][2].

٣. نزولها:

اتفقوا على أن سورة البقرة أول سورة أنزلت بالمدينة[3]، وقد استمر نزولها طوال حياة النبي في المدينة، إلى آخر ما نزل من القرآن على الرأي الراجح في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٤. عدد آياتها وكلماتها وحروفها:

اختلفوا في عدد آياتها إجمالاً وتفصيلاً، فقيل: مائتان وثمانون وخمس، وقيل: وست، وقيل: وسبع، وعدد كلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة، وعدد حروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسمائة حرف، وهي السورة الثانية في ترتيب المصحف، وحجمها قد أخذ جزئين وثلاثة أرباع الجزء[4].

٥. فضلها:

عن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله يقول: [اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، كأنهما فرقان من طير صوافّ تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة[5]].

٦. علة تقديمها على باقي السور القرآنية:

أحاول أن استشف سرَّ تقديم سورة البقرة على غيرها من السور باستثناء سورة الفاتحة مراعاة لعنوان البحث حول التقديم والتأخير من وجهات النظر الآتية، والله أعلم:

أ. إنها أول سورة نزلت في المدينة المنورة أي بعد الهجرة، والهجرة لها وقع تاريخي في حياة المسلمين، وبالهجرة بدأ تاريخ المسلمين الشرعي، فلعلّ

١ المراد بالزهراوين: المنيرتين؛ يقال لكل مستنير: زاهر، انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥٢/١.
٢ صحيح مسلم: ١٥٣/١.
٣ فتح الباري: ٢٢٦/٩.
٤ تفسير ابن كثير: ٣٧/١، الإتقان: ٦٨/١.
٥ الغياية: ما أظلك من فوقك. الفرق: القطعة من الشيء. الصوافّ: المصطفة المتضامة. البطلة: السحرة. والحديث في صحيح مسلم: ٥٥٣/١.

الأولوية والبداية راعت أولوية السورة وتقديمها على غيرها.

ب. إنها أطول سورة في القرآن؛ بل قد افتتحت بها السبع الطوال من السور القرآنية، فلربما قُدِّمتْ لطولها على غيرها من الطوال.

ج. أو بسبب أنها ضمت آيات متميزات، من سيدة آي القرآن (آية الكرسي)، إلى أطول آية في القرآن (آية الدين)، إلى (خواتيم سورة البقرة) التي هي كنز من كنوز عرش الرحمن.

المبحث الأول

التقديم والتأخير في التراكيب النحوية

أولاً: في الإسناد الخبري

١. تقديم الخبر على المبتدأ:

الأصل في الخبر أن يتقدم المبتدأ عليه، قال ابن مالك[١]:

الأصل في الأخبار أن تؤخرا وجوزوا التقديم إذْ لا ضررا

وقد ذهب الكوفيون إلى منع تقديم الخبر على المبتدأ[٢]، ولكننا نرى في سورة البقرة أمثلة وشواهد على تقديم الخبر على المبتدأ في الحالات الآتية:

أ. عود الضمير المتصل بالمبتدأ على بعض متعلق الخبر

قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، فقدَّم خبر المبتدأ المرفوع وهو (سواء) على الجار والمجرور المتعلقين بـ(سواء)، على (أأنذرتهم)، المتكونة من همزة التسوية والفعل والفاعل والمفعول به كمصدر منسبك من الهمزة والفعل في محل رفع مبتدأ مؤخر، والمعنى: إنذارهم وعدمه سواء عليهم[٣].

---

١ انظر: شرح الألفية لابن عقيل: ٢٢٧/١.

٢ انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: ٤٦/١.

٣ انظر: ملحة الإعراب: ١٦.

وهذه الآية دليل على أن تقديم الخبر على المبتدأ جائز[1]، ومسوّغ هذا التقديم كون المبتدأ فيه ضميرًا يعود على شيء في الخبر، ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٢]، فإننا لو قدمنا المبتدأ فقلنا: أجره له، لعاد الضمير على صاحب الأجر وهو الله لا على المأجور وهو العبد، وهو مؤخر لفظاً ورتبة وذلك لا يجوز[2]، وهذه الحالة يكون التقديم فيها واجباً؛ لأن الجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف خبر، وقد اشتمل المبتدأ على ضمير يعود على شيء في الخبر، وعلة ذلك لئلا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، وهو ممنوع[3].

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ [البقرة: ٦٢]، ففي الآية شاهد آخر بصيغة الجمع وهو: (فلهم أجرهم)، فـ(لهم) جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ الثاني، و(أجر) مبتدأ ثانٍ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف، والهاء ضميرٌ متصل مبني على الضم في محل جر مضاف إليه[4]، ولا يجوز تأخير الخبر؛ لأن الضمير المتصل بالمبتدأ وهو (هم) عائد على (لهم)، وهو جزء من الخبر، فلو قُدِّم لعاد الضمير على متأخر لفظاً ورتبة وهذا لا يجوز.

١. كون المبتدأ نكرة ولا مسوّغ إلا تقديم الخبر

لا يجوز تأخير الخبر إذا كان المبتدأ نكرة؛ لأن الخبر مع التأخير والحالة هذه يوهم بأنه نعت؛ لأن حاجة النكرة إلى النعت ليخصصها أقوى من حاجتها إلى الخبر[5]، فكان الحل هو أن يتقدم الخبر لئلا يوقع تأخيره لبساً ظاهراً، والتقديم إنما هو لرفع لبس الخبر بالصفة[6]، والأمثلة على هذا النوع كثيرة في سورة البقرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٧]، ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٞ﴾ [البقرة: ١٩]، ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ [البقرة:١١٤]، ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩].

---

١ انظر: تفسير الرازي: ٢/٤٠.

٢ انظر: توضيح شرح قطر الندى: ٣٧.

٣ ()انظر: شرح ابن عقيل: ١/٢٤٠.

٤ انظر: ملحة الإعراب: ١٤١.

٥ شرح الأشموني: ١/٢٨٨.

٦ شرح التصريح على التوضيح: ١/١٦٨.

ففي قوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إذا جعلنا (مِنْ) غير عاملة، وتقديم مثل هذه الأخبار يرتبط بمرتبة العامل من حيث القوة والضعف قياساً على الأقوى ليُقَدَّم، إذ كون المبتدأ نكرة فهو في موقف ضعف؛ لأن قوته تكمن في معرفته، ولذلك يجب أن يكون المسوّغ من الجار والمجرور أو ما أضيف الظرف إليه في الجملة مما يجوز الإخبار عنه[١].

وقد يسوغ الابتداء بالنكرة في حالات، وعند ذلك جاز تقديم الخبر وتأخيره، ومسوغات الابتداء بالنكرة التي وردت في سورة البقرة، منها: أن تكون موصوفة لفظاً أو تقديراً أو معنى[٢]، مثاله قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١]، أو العطف بشرط كون المعطوف أو المعطوف عليه ما يسوّغ الابتداء به[٣]، مثل قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ﴾[البقرة: ٢٦٣]، وإنما صحَّ الابتداء بالنكرة لاختصاصها بالصفة[٤]، فأخذ العطف الحكم نفسه، أو أن يسبقها نفي[٥]، كقوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ [البقرة: ٣٨، ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧]، فالفاء واقعة في جواب شرط، و(لا): حرف نفي، و(خوفٌ): مبتدأ مرفوع بالابتداء، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وساغ الابتداء به وهو نكرة لتقدم النفي عليه، و(عليهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ[٦].

فالمسوغان الأولان عضدهما أن استدعاء المنكّر في مقام الابتداء أن يوصف ليتقوى بذلك فائدة الحكم[٧]، وأما المسوّغ الثالث مما لا يخفى صدارته في الكلام.

---

١ انظر: شرح ابن عقيل: (هامش: ٣): ٢١٧/١.
٢ انظر: مغني اللبيب: ٦٠٩.
٣ انظر: مغني اللبيب: ٦١٠.
٤ انظر: تفسير البيضاوي: ١٣٨/١.
٥ انظر: مغني اللبيب: ٦١٢.
٦ انظر: ملحة الإعراب: ٨٧.
٧ انظر: مفتاح العلوم: ٤٢٢.

ب. كون الخبر مما له الصدارة في الكلام:

قد يستحق الخبر التقديم على المبتدأ لحالة الصدارة في الكلام بنفسه أو بغيره؛ بأن يكون شبيهاً بما له الصدر[1]، فمثال الأول قوله تعالى: ﴿مَا لَوۡنُهَاۚ﴾ [البقرة: ٦٩]، فـ(ما) اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع خبر مقدم، و(لونها) لون: مبتدأ مؤخر مرفوع، والهاء: ضمير متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه[2].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿مَاهِيَۚ﴾ [البقرة: ٩٠]، فـ(ما) اسم مبني على السكون في محل رفع خبر مقدم، و(هي): ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ مؤخر[3].

وأما مثال تصدر الخبر بغيره وذلك بأن يكون شبيهاً بما له الصدر، ومثاله من قوله تعالى: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ﴾ [البقرة: ٩٠]، فـ(أنْ): حرف مصدري ونصب، و(يكفروا): فعل مضارع منصوب بـ(أنْ)، وعلامة نصبه حذف النون، و(الواو): ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل، والمصدر المنْسَبِك من (أنْ) والفعل في تأويل مصدر؛ لأنه المخصوص بالذم ومحله الابتداء، وجملة (بئس): هي الخبر المقدم[4]، ووجه شبه جملة الذم بما له الصدر في تقديمها جوازاً في هذه الآية من وجهين:

أحدهما: وجود (ما) المتصلة بـ(بئس)، وهذه (ما) كلمة مبهمة يؤتى بها لأغراض متعددة[5].

الآخر: لا يكون فاعل (بئس) إلا ما عرف بالألف واللام، أو ما أضيف إلى ذلك أو مضمراً على شريطة تفسيره باسم يذكر بعده[6].

---

١ انظر: المشكاة الفتحية: ١٦٩.
٢ انظر: ملحة الإعراب: ١٥٦.
٣ انظر: ملحة الإعراب: ١٥٩.
٤ انظر: ملحة الإعراب: ٢١٣.
٥ انظر: معاني النحو: ٦٧٦/٤.
٦ انظر: المقرب: ٧٠.

٢. تقديم خبر (كان) على اسمها:

تقديم خبر (كان) وأخواتها على أسمائها يكون ثلاثة أقسام:

أ. الجواز

قال النحاة: ((ويجوز في الجميع أن يتوسط الخبر بين الفعل والاسم، ولا يمنع من ذلك تساويهما في التعريف والتنكير))[١]، وقال ابن مالك: ((وتوسيط أخبارها كلها جائز، ما لم يمنع مانع أو موجب))[٢]، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ [البقرة: ٩٤]، فهنا حالة جواز إذ لم يكن هناك ضمير يستوجب تقديم الخبر، وليس هناك لبس كي يمتنع، فـ(كان) فعل ماض ناقص، وفي سياق الآية جاء فعل الشرط، و(التاء): حرف دال على التأنيث، و(لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (كان) مقدم، و(الدار) اسم كان مؤخر، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره[٣].

وهذا الجواز مختلف فيه بأخوات (كان)، فابن درستويه يمنعه في (ليس)، وابن معطي يمنعه في (دام)، والصحيح الجواز من غير استثناء[٤].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[البقرة: ١٧٧]، بقراءة النصب لحمزة وحفص، وقوى ذلك عند من قرأ به لأن (أن تولوا) أعرف من البر، وإذا كان كالمضمر في أنه لا يوصف والبر يوصف[٥]، فمن نصب (البر) جعل (أن تولوا) اسم ليس[٦]، وإنَّ رفع (البر) ضعيف[٧].

---

١ انظر: شرح اللمحة البدرية: ٢/١٠.

٢ انظر: التسهيل: ٥٤.

٣ انظر: ملحة الإعراب: ٢٢٥.

٤ انظر: شرح التصريح على التوضيح: ١/١٨٧.

٥ انظر: التبيان في إعراب القرآن: ٧٧.

٦ انظر: مشكل إعراب القرآن: ١١٧، إعراب القرآن: ١/٢٧٩.

٧ انظر: شرح التصريح على التوضيح: ١/١٨٧.

ب. الوجوب

يجب تقديم خبر (كان) وأخواتها على اسمها، بمعنى يجب توسط الخبر بين الفعل والاسم في مواضع، والذي يهمنا من هذه المواضع ما إذا كان في الاسم ضمير يعود على شيءٍ متصل بالخبر لئلا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة[١]، لأن لدينا مثالاً له من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ [البقرة: ١١٤]، فـ(ما) حرف نفي، و(كان) فعل ماض ناقص مبنى على الفتح، و(لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم لـ(كان)، و(أنْ) حرف مصدري ونصب واستقبال، و(يدخلوها): فعل مضارع منصوب بـ(أن) وعلامة نصبه حذف النون، و(الواو): ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل، و(الهاء) ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به، والمصدر المنْسَبِك من (أنْ) وما بعدها في محل رفع اسم (كان) مؤخراً[٢].

ج. المنع:

وأما الامتناع ففي مواضع، منها أن يترتب على التقديم لبس، بأن يكون إعراب الاسم والخبر غير ظاهر، ولا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر في حالة عدم ظهور حركات الإعراب[٣]، أو يكون الخبر محصوراً فيه، ولا يجوز أن يتقدم الخبر على الاسم لأن المحصور فيه يجب تأخيره[٤]، أو أن يكون في الخبر ضمير يعود على شيء في الاسم، نحو: كان غلام هند مبغضها، وهذا الموضع ذكره الأشموني[٥]، وهذا الوجه مردود؛ لأن الصواب الجواز، لأن في مثل هذه الحالة يعود الضمير على متقدم رتبة متأخر لفظاً[٦].

وهذه الحالات لم يتوافر فيها شاهد من سورة البقرة، وإنما ذكرتها لتتميم الفائدة؛ ولكي أثبت أن النحو القرآني راعى في نظم كلامه وأساليبه المعجزة ما كان على وفق لغة العرب وقواعدهم، ولم يأتِ القرآن بمثال يمنعه أهل اللغة.

---

١ انظر: شرح ابن عثيل: ٢٧٢/١.
٢ انظر: ملحة الإعراب: ٢٧٥.
٣ انظر: شرح ابن عثيل: ٢٧٣/١.
٤ انظر: شرح ابن عقيل: ٢٧٢/١ (هامش: ٢).
٥ انظر: شرح الأشموني: ٢٣٢/١.
٦ انظر: حاشية الصبان: ٢٣٢/١.

د. تقديم خبر (إنَّ) على اسمها:

لا يجوز تقديم شيء من معمولات (إنَّ) وأخواتها عليها، ولا تقديم أخبارها على أسمائها؛ لضعفها في العمل إلا أن يكون الخبر ظرفاً أو مجروراً فإنَّ العرب اتسعت فيهما[1]، وإنما اغتفروا التوسط بالظرف والمجرور التوسع لكثرتهما.

وهذا ما أشار إليه ابن مالك في ألفيته إذ قال[2]:

وراعِ ذا الترتيبَ إلا في الذي كليتَ فيها أو هنا غير البذي

والذي ورد في سورة البقرة تقديم خبرها بالجار والمجرور، وأما تقديم الظرف فلم يرد فيما أعلم، ومما ورد في موضوع الجار والمجرور قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، ف(الواو): حرف استئناف، و(إنَّ): حرف توكيد ونصب، و(من الحجارة): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ) مقدم، و(لما): اللام مزحلقة أو للابتداء، و(ما): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ) مؤخر[3]، وهذا التقديم أفاد التعليل للتفضيل، بمعنى: أن الحجارة أصبحت أفضل من قلوب من لا يتأثر[4]، وكذا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

وهناك رأي يلتزم به محمد الأنطاكي في كتابه: المنهاج يقول فيه: ((لا يجوز أن يتقدم الخبر على الاسم مع الأدوات -إنَّ وأخواتها- أما إذا وجدنا ظرفاً أو جاراً ومجروراً متقدمين على الاسم... فهما متعلقان بخبر محذوف مؤخر على الاسم لا مقدم عليه))[5]، ووجدت الزجّاجَ بعد أن ذكر ما شاع في تقديم خبر (كان) على اسمها قال: ((وليس الأمر في (إنَّ) كذلك، لارتفاعها بالابتداء، وإن لم يجز تقديمه في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وذلك لأن (أنْ) مع الفعل تنسبك

---

١ انظر: المقرب: ١١٨.

٢ انظر: ألفية ابن مالك: ١٤.

٣ انظر: ملحة الإعراب: ١٦٨.

٤ انظر: تفسير البيضاوي: ١/٧٠.

٥ المنهاج: ١٩.

في تأويل مصدر))[1].

ولا ننسى حالة تقديم خبر (إنَّ) وجوباً حين يكون في اسمها ضمير عائد على الخبر، فقد جاء في حاشية الخضري: ((الذي يجب تقديمه لئلا يعود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة، ولا يجوز تقديم معمول الخبر على الاسم إذا كان غير ظرف ولا مجرور، وكذا إن كان المعمول ظرفاً أو جاراً ومجروراً فلا يجوز تقديم المعمول على الاسم، وأجازه بعضهم))[2].

ثانياً: في الإسناد الفعلي

١. تقديم الفاعل على الفعل:

التركيب النحوي في إسناد الفاعلية يقتضي تقديم المسند على المسند إليه، وبتعبير آخر أن يتقدم الفعل على الفاعل؛ فإن تقدم المسند إليه على الفعل نظر في سبب ذلك.

وقد اختلف النحويون في تسمية هذه المسألة، فبعضهم يقول: (تقديم الاسم على الفعل)[3]، وبعضهم يصطلح عليه: (تقديم المبتدأ على الفعل)[4]، وبعضهم يسميه: (تقديم المسند إليه على الفعل)[5]، وهذا الخلاف عائد على سؤال نحوي مفاده: هل يجوز تقديم الفاعل على الفعل؟

فالكوفيون أجازوا ذلك، واستدلوا بوروده عن العرب[6]، وهذا ما لا يجوزه البصريون، واستدلوا على عدم الجواز بأمرين[7]:

((أحدهما: أن الفعل وفاعله كجزأين لكلمة واحدة متقدم أحدهما على الآخر وصفاً، فكما لا يجوز تقديم عجز الكلمة على صدرها لا يجوز تقديم الفاعل على فعله.

---

١ إعراب القرآن: ٢٧٩/١.
٢ انظر: حاشية الخضري: ١٣٠/١.
٣ انظر: التبيان: ٩٥.
٤ انظر: معاني النحو: ١٧٠/١.
٥ انظر: علل التعبير القرآن عند الزمخشري: ١٠٣.
٦ انظر: حاشية الصبان: ١٤٥/٢.
٧ شرح ابن عقيل: ١٢٥/٢.

وثانيهما: أن تقديم الفاعل يوقع في اللبس بينه وبين المبتدأ، وذلك أنك إذا قلت: (زيد قام)، وكان تقديم الفاعل جائزاً لم يدر السامع أأردت الابتداء بـ(زيد) والإخبار عنه بجملة: (قام) وفاعله المستتر، أم أردت إسناد (قام) المذكور إلى زيد المذكور على أنه فاعل، وحينئذ خال من الضمير)).

وهناك أدلة أخرى لا حاجة لذكرها -هنا-[1]، والحقيقة أن القرآن الكريم استخدم قضية تقديم المسند إليه على الفعل على أنه فاعل لا مبتدأ، ووظّف ذلك التقديم لمعان أفاده السياق، ولو كان الأمر على عكس هذا لوجب تقديم فعل المسند إليه لأمر وراء كونه خبراً -خبر الفاعل الذي هو الفعل- كونه عاملاً فيه، ورتبة العامل قبل المعمول، وكونه عاملاً فيه سبب أوجب تقديمه[2].

قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١١٣]، ففيها تقديم لفظ الجلالة (الله) الذي هو الفاعل على الفعل (يحكم)، ولها المراد بهذا التقديم هو أن يكون الغرض منه أنَّ المذكور -جلَّ جلاله- هو الفاعل لهذا الفعل دون كل أحد، فكان الغرض إظهار الاستبداد بأن يزيل عن السامع شبهة أن يكون ذلك يصدر من غيره[3].

ثم إنَّ اختصاص الحاكمية له سبحانه خاصة، فحصر الحكم لنفسه، بقوله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ (الأنعام: ٥٧]، هذا وإنَّ المقام هو يوم القيامة بين فِرَقٍ وطوائف مختلفة من يهود ونصارى وغيرهم والخطاب موجّه إلى المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢١]، في تقديم لفظ الجلالة (الله) المسند إليه على الفعل (يدعو)، وسر هذا التقديم هو تأكيد الدعوة وتفخيمها، فكان الغرض أن يحقق عند السامع هذا الشيء[4]، ولا سيما أنَّ في السياق دعوات كثيرة كلها إلى النار، ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥].

---

١ يراجع: معاني النحو: ٢/٤٦٥-٤٦٦.
٢ انظر: شرح المفصل: ١/٧٤.
٣ انظر: التبيان: ٩٤.
٤ انظر: التبيان: ٩٤.

٢. تقديم المفعول به على الفعل:

الأصل في الجمل التي تحتوي مفعولاً به أن يؤتى بالفعل فالفاعل فالمفعول به[١]، فإذا ما قُدِّم المفعول به على الفعل فلا شكَّ في أنَّ هذا عدولٌ من التعبير الطبيعي الذي هو الأول يصحبه عدولٌ من معنى إلى معنى[٢].

والمعاني التي خرجت في مثل هذا النوع من التقديم في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، فقدَّم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم[٣]، ألا ترى أنه تعالى أسند ههنا إلى نفسه إيذاناً بأنهم ينفقون الحلال المطلق، فإنَّ إنفاق الحرام لا يوجب المدح، وبالتالي ليس له من الأهمية شيء[٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، قدَّم المفعول به لغرض الاختصاص، وهذا ما نصَّ عليه الزمخشري بقوله: ((وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥][٥]؛ إلا أن ابن الأثير عارض تعليل الزمخشري من أن التقديم يفيد الاختصاص؛ بل عزاه إلى مراعاة نظم الكلام[٦]، وقد رفض أبو حيان رأي الزمخشري أيضاً، وعنده أن هذا التقديم إنما هو للعناية والاهتمام[٧].

وأميل إلى ما جاء به الزمخشري من تعليل هذا التقديم بأنه للاختصاص؛ فالزمخشري يجعل لكل تعليل ما يناسبه لأداء المعنى الدقيق، وترجيحي لهذا الرأي لأسباب منها:

- تكرار المفعول في (إياي) وإن كان هناك من يرى أن ما بعد الفاء لا تعمل بما قبلها؛ ولكن التقدير يقتضي ذلك، فـ(إياي) منصوب بفعل مضمر دلَّ عليه ما بعده، وتقديره: فارهبوا إياي فارهبون[٨].
- كون (ارهبون) قد استوفت مفعولها، وهو الياء بعد نون الوقاية[٩].

---

١ انظر: شرح الأشموني: ٥٥/٢.
٢ انظر: معاني النحو: ٥٠٨/٢.
٣ انظر: تفسير الكشاف: ٢١٩/١، تفسير الرازي: ١٧٢/١، تفسير النسفي: ١٢/١.
٤ انظر: تفسير البيضاوي: ١٩/١.
٥ انظر: تفسير الكشاف: ١٣١/١.
٦ انظر: المثل السائر: ٢١٩/٢.
٧ انظر: تفسير البحر المحيط: ١٦/١.
٨ انظر: تفسير النسفي: ٤٦/١.
٩ انظر: شرح الأشموني: ٤٩/٢.

❑ دلالة الحصر تدل على أن المرء يجب أن لا يخاف أحداً إلا الله، وكما يجب ذلك في الخوف فكذا في الرجاء والأمل[1].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة[2]، فقدَّم المفعول به على فعل العبادة، وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى فلا يعبد أحد غيره[3].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣]، فـ(ما) اسم استفهام مبنى على السكون في محل نصب مفعول به مقدم، و(تعبدون) فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل[4]، فأسماء الاستفهام –كما لا يخفى– لها الصدارة في الكلام، ومع صدراتها فلها معنى الحث، قال البيضاوي: ((أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما، و(ما) يسأل به عن كل شيء ما لم يعرف)) [5]، فتقديم المفعول به على الفعل من الأنواع التي يكون فيها التقديم هو الأبلغ[6].

٣. تقديم المفعول به على الفاعل:

الأصل في الفاعل أن يلي عامله وقد يتأخر، فيتقدم عليه المفعول به[7]، وينقسم الفاعل بالنظر إلى تقديم المفعول عليه وحده وتأخيره عنه إلى ثلاثة أقسام[8]، وهي:

أ. قسم لا يجوز فيه تقديم المفعول على الفاعل وحده، وهذا في حالة كون الفاعل ضميراً متصلاً كقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠، ٤٧]، فلو أخّرَ الفاعل لكان: أنعم عليكم أنا، ولانفصل الضمير مع إمكان اتصاله، وهذا لا يجوز.

---

١ انظر: تفسير الرازي: ٣٢٩/١.
٢ انظر: البرهان: ٢٣٦/٣.
٣ انظر: التعبير القرآني: ٤٨.
٤ انظر: ملحة الإعراب: ٣١٤.
٥ تفسير البيضاوي: ٨٩/١.
٦ انظر: المثل السائر: ٢١٧/٢.
٧ انظر: توضيح شرح قطر الندى: ٥٢.
٨ انظر: المقرب: ٥٥.

ب. قسم يلزم فيه تقديم المفعول على الفاعل، وهذا في حالة اتصال ضمير بالفاعل عائد على المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فـ(ابتلى) فعل ماضٍ مبنى على الفتح، و(إبراهيمَ) مفعول به مقدم منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره، و(ربُّ): فاعل مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، وهو مضاف، و(الهاء) ضمير متصل مبني على الضم في محل جر مضاف إليه، والضمير عائد على (إبراهيم) وهو مؤخر لفظاً متقدم رتبة[١]، وإنما وجب تقديمه –ههنا– لأن تأخيره يوجب إضماراً قبل الذكر[٢].

ومن هذا القسم أيضاً حالة امتناع تقديم الفاعل على المفعول به إذا اتصل الفعل بضمير للمفعول به، ولو قُدِّم الفاعل لانفصل الضمير مع إمكان اتصاله، وهذا لا يجوز، ومثاله من قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقوله: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ١٧٤].

ج. قسم يجوز فيه التقديم والتأخير، وهو ما عدا القسمين السابقين، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]، فجعل (آدمُ) المتلقي، وعلى قراءة ابن كثير وحده: (آدمَ) بالنصب ورفع (كلماتٌ) جعلهنَّ المتلقيات[٣]، والمعنى –والله أعلم– واحد؛ لأن ما لقيك فقد لقيته، وما نالك فقد نلته، أو أن يكون المعنى في أيهما أسبق للوصول: اهتمام آدم لتلقي الكلمات لأجل التوبة؟ أو حرص صاحب الكلمات وهو (الله) على أن تصل لآدم لأنه مجتبى[٤].

---

١ انظر: ملحة الإعراب: ٢٩٤.

٢ انظر: إعراب القرآن: ٦٧٦/٢.

٣ انظر: معاني القرآن للأخفش الأوسط: ٦٧/١.

٤ انظر: تفسير ابن كثير: ٥٥/١.

ثالثاً: في تركيب الجملة

١. التقديم والتأخير في تركيب شبه الجملة:

الجار والمجرور –شبه الجملة– يتقدم ويتأخر ولا بدَّ له من متعلق بفعل أو بما يشبه الفعل، أو ما هو بمعناه[١]، وإنَّ أغراض تقديم الجار والمجرور لا تكاد تختلف عن غيرها من أغراض تقديم المفعول والحال والظرف ونحوها، ومدار الأمر في ذلك معان يقصدها السياق القرآني، وهي:

أ. القصر والحصر والاختصاص

كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، فقدَّم (لكم) للاختصاص؛ إذا قال لهم: إن كانت لكم الدار الآخرة خالصة لكم وحدكم لا يشارككم فيها غيركم كما تزعمون فتمنوا الموت[٢]، ومثل ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧]، فدلَّ على اختصاص الملك بالله لا بغيره[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ونحو قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ب. الردع والزجر

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فهذا لا يفيد القصر؛ لأن الله خبير بما نعمل وبغير ذلك أيضاً، ولا تختص خبرته بعلمنا؛ بل إنَّ خبرته مطلقة لا يحدها شيء، ولكن لما كان الكلام علينا وعلى أعمالنا قدَّمها لنرتدع ونحذر[٤]، ومنه أيضاً قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣، ٢٣٧].

ج. العناية والاهتمام

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ

---

١ انظر: معاني النحو: ١٠٨/٣.
٢ انظر: معاني النحو: ١٠٢/٣.
٣ انظر: المثل السائر: ٢٢٤/٢.
٤ انظر: معاني النحو: ١٠٣/٣.

ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، قدَّمَ (به) والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام، فالكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات، فالمقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات[١]، أما في غير سورة البقرة كالمائدة مثلاً قال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، فالمقام على التحليل والتحريم ومن بيده ذلك ورفض أية جهة تحلل وتحرم من غير الله، فإنه عليم بما يريد؛ لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام[٢].

ومن هذه المسألة موضوع تأخير الظرف، قال ابن الأثير: ((إذا كان الكلام مقصوراً به الإثبات فإنَّ تقديمه أولى من تأخيره، وفائدة إسناد الكلام الواقع بعده إلى صاحب الظرف دون غيره، فإذا أريد بالكلام النفي فيحسن فيه تقديم الظرف وتأخيره، وكلا هذين الأمرين له موضع يختص به، فأما تقديمه في النفي فإنه يقصد به تفضيل المنفي عنه على غيره، وأما تأخيره فإنه يقصد به النفي أصلاً من غير تفضيل)) [٣].

فقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] الجار والمجرور تأخرا في الجملة، فأفادا نفي الريب وإثبات الكتاب أنه حق وصدق وليس باطلاً وكذباً كما كان يدعيه المشركون، فتأخير الجار والمجرور أفاد النفي من غير تفضيل، ولو قدَّم في الآية لقيل: (لا فيه ريب) لإفادة التفضيل، فدلَّ على نفي الريب عن القرآن الكريم وتفضيله على كتب أخرى فيها ريب، وهذا المعنى غير مقصود ولا مراد[٤].

٢. التقديم والتأخير في تركيب جمل السورة:

في سورة البقرة نماذج للتقديم والتأخير في تركيب جمل السورة نفسها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله في السورة نفسها: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ١٢٣]، فلمَ قدَّم الشفاعة في الآية الأولى وأخّرَ العدل؟ ثم قدَّم العدل في الآية الأخرى وأخَّرَ الشفاعة، يجيبنا الشيخ زكريا بن محمد الأنصاري عن هذا السؤال قائلاً: ((مَنْ كان ميله إلى حب المال

١ انظر: معاني النحو: ١٠٨/٣، التعبير القرآني: ٧٠.
٢ انظر: معاني النحو: ١٠٨/٣، التعبير القرآني: ٧٠.
٣ انظر: المثل السائر: ٢٢٣/٢.
٤ انظر: علل التعبير القرآني عند الزمخشري: ١١١.

أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية، ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة، ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الوصفين، فإن قلت: فلمَ اختصت هذه الآية بتقديم الشفاعة دون تلك؟ وهلا عكس؟ قلت: هو سؤال دوري لا جواب له، وقد يقال: اختصت هذه بتلك لأنه قد ذكر فيها أحكاماً كثيرة تتعلق بقصة بني إسرائيل لم تذكر في تلك فكانت هي المقصود بذكر شأنهم، فقصد إلى تقديم عدم قبول الشفاعة رداً لمقالتهم الغالية في القبح بالنسبة إلى ما بعدها، وهي أن اليهود قالوا: سيشفع لنا آباؤنا الأنبياء، وقالت الكفرة: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فآيسهم الله منها فناسب تقديمها لذلك والله أعلم)[1].

ومن هذه المسألة قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله في السورة نفسها: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: ٥٨]، والحقيقة لم أجد فيما توافر لديَّ من المصادر والمراجع أن أقف على شيء فيها بوضوح حول قضية التقديم والتأخير في هاتين الآيتين من خلال تركيب الجملتين، والذي يبدو لي والله أعلم أن التقديم والتأخير في كلمة (رغداً) هو لما كان السياق القرآني يتحدث عن الجنة قدَّم (الرغد)؛ لأن كل ما في الجنة هو رغد، وأما تأخيرها في الآية الأخرى فلأن الكلام في الدنيا ومع بني إسرائيل، فالأكل كان من ثمار قرية من قرى الدنيا فأخّره ليدل على أن رغد الدنيا مهما كان واسعاً ولذيذاً فإنه مؤخر لفظاً ورتبة عن رغد الآخرة، قال البيضاوي عن الآية الأولى: ((رغداً: واسعاً رافهاً، حيث شئتما: أي مكان من الجنة شئتما، وسَّع الأمر عليهما))[2]، وقال النسفي عن الآية الأخرى: ((فكلوا منها: من طعام القرية وثمارها))[3].

١ الاعلام والاهتمام بجمع فتاوى شيخ الإسلام: ٣٢٢.
٢ تفسير البيضاوي: ١/٥٤.
٣ تفسير النسفي: ١/٥٣.

المبحث الثاني

معاني التقديم والتأخير

أولاً: الاعتناء بشأن المتقدم

١. التبرك والتعظيم:

من التقديم والتأخير في سورة البقرة الذي جاء للتبرك والتعظيم قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، في تقديم اسم الله في الأمور ذوات الشأن، ومما جاء في تقديم لفظ الجلالة (الله) للتبرك في آية الكرسي بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فإن تقديم لفظ الجلالة فيها ينبئ عن البركة بالابتداء باسمه تعالى في سيدة آي القرآن، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ومما جاء أيضاً في تقديم اسم الله تعالى للتعظيم في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥]، فسبب هذا التقديم في مثل هذه المواضع لعظمة اللفظة والمفردة لأجل الاهتمام بها، وذلك أن من عادة العرب الفصحاء أنه إذا أخبروا عن مخبر ما وأناطوا به حكماً –وقد يشركه غيره في ذلك الحكم، أو فيما أخبر به عنه، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب– فإنهم مع ذلك إنما يبدأون بالأهم والأولى[١]، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣، ١١٠]، فبدأ بالصلاة لأنها أهم في عظمة أمرها من الزكاة، ولأن الصلاة لازمة في أكثر الأوقات، والنفقة لازمة في بعض الأوقات، فهذا التقديم من باب الأهم فالأهم[٢].

٢. التشريف والتفضيل:

من ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ففي تقديم جبريل على ميكائيل لأنه أفضل[٣]؛ لأن جبريل صاحب الوحي والعلم، وميكائيل صاحب الأرزاق، والخيرات النفسانية

---

١ انظر: البرهان: ٣/٢٣٥.

٢ انظر: تفسير البحر المحيط: ١/٤١.

٣ انظر: معترك الأقران: ١/١٣٢.

أفضل من الخيرات الجسمانية[1]، ومن هذا التقديم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فقدَّم البسطة في العلم على الجسم، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ومن التقديم بالشرف تقديم الأنبياء على الأتباع[3]، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن التقديم للأفضلية قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وإنما قُدِّمت الأولى على الثانية إشعاراً بأن الدين يجب تقديمه على الدنيا[4]، ومنه تقديم المؤمنين على الكافرين[5]، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فقدم القريب لأن الصدقة عليه أفضل من الأجنبيّ[6].

ومن تقديم السمع على البصر لأنه أفضل بدليل أن الله لم يبعث نبياً أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم[7]، قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

٣. الحث عليه:

من أجل الحث يكون التقديم، ولا سيما مع الأوامر والنواهي الشرعية وفي التكاليف والأحكام، فمثلاً قدَّم الله تعالى التقوى على الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ

---

١ انظر: البرهان: ٢٥٦/٣.
٢ انظر: تفسير الرازي: ٢٩٤/٢.
٣ انظر: التبيان: ١٤٧.
٤ انظر: تفسير الرازي: ٣٧٤/٢.
٥ انظر: معترك الأقران: ١٣٢/١.
٦ انظر: البرهان: ٢٥٦/٣.
٧ انظر: التعبير القرآني: ٥٣.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢-٣]، وذلك لأن كمال السعادة لا يحصل إلا بترك ما لا ينبغي وفعل ما ينبغي، فالترك هو التقوى، والفعل إما فعل القلب وهو الإيمان، وإما فعل الجوارح وهو الصلاة والزكاة التي ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[البقرة: ٣]، وإنما قدَّم التقوى الذي هو الترك على الفعل الذي هو الإيمان والصلاة والزكاة؛ لأن القلب كاللوح القابل لنقوش العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة (دليل الفطرة)، واللوح يجب تطهيره أولاً من النقوش الفاسدة حتى يمكن إثبات النقوش الجيدة فيه، وكذا القول في الأخلاق، فلهذا السبب قدَّم التقوى وهو ترك ما لا ينبغي، ثم ذكر بعده فعل ما ينبغي[١].

وهناك نوع يتقدم ليتضح الإشكال في الفهم كي يحثنا عليه سبحانه، كقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فإنَّ ظاهر الآية يحتمل إباحة الوطء في أي محل شاء الزوج من المحلين (القبل أو الدبر)، وفي ذلك من الإشكال ما لم يخفَ على المطلعين على الأحكام الفقهية بهذه المسألة، لكن لما تقدَّم قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ، والحرث موضع البذر وحل الزرع ورجاء النبت ومظنة النمو والزيادة عُلِمَ أنَّ المراد بقوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ، أي: كيف شئتم من الهيئات، أو أن يكون بمعنى: متى شئتم من الزمان، والله أعلم[٢]،

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فقدَّم النفي على الإثبات، وكان الغرض إثبات التوحيد ونفي الشركاء والأنداد[٣]؛ ليحثنا على تقرير الوحدانية، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً غيره[٤].

١ انظر: تفسير الرازي: ١٦٧/١.
٢ انظر: تفسير البيضاوي: ٥٤/٢.
٣ انظر: تفسير الرازي: ٥٤/٢.
٤ انظر: تفسير البيضاوي: ٩٧/١.

ثانياً: مراعاة الترتيب

١. الترقي:

من أسباب التقديم ومعانيه أن القرآن الكريم يراعي الترقي من الأدنى إلى الأعلى، أو من القلة إلى الكثرة، أو من القريب إلى البعيد لأغراض تخدم السياق القرآني نفسه، وهذا الجانب من الأهمية بمكان في الأسلوب القرآني، فقد عاب الله تعالى على بني إسرائيل حينما أغفلوا هذا الجانب المهم حين خلطوا في المفاهيم والقيم ولم يراعوا الرتب، فقال: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فقدَّم الله تعالى الملك على الحكمة (النبوة)، مع أن الملك أدنى حالاً من النبوة، فأجاب عن هذا الإشكال الظاهري كبير المفسرين الإمام الرازيّ فقال: ((لأن الله تعالى بيّن في هذه الآية كيفية ترقي داود إلى المراتب العالية، وإذا كان المتكلم في كيفية الترقي فكل ما كان أكثر تأخراً في الذكر كان أعلى حالاً وأعظم رتبة))[1].

وكذا الأمر حين قدّم صيام ثلاثة أيام على السبعة في بعض أحكام الحج، فقال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ١٩٦]، فترقى بالحكم من القليل إلى الكثير، أو من الأدنى إلى الأعلى أو من القريب إلى البعيد، كل ذلك وارد.

ومنه تقديم الأرض على السماء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، فترقى بعبادة تفكرنا مما هو على الأرض حتى نرفع أعيننا إلى السماء الدنيا، ولعله من باب تقديم حاجة الإنسان إلى الأرض المذللة له أكثر من حاجته إلى السماء، لأن سياق الخطاب كان في مقام التمنن على عباده.

وقد ترقى الله سبحانه وتعالى بذكر القلة إلى الكثرة في قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، فكل طائفة هي أقل من التي بعدها، فتدرج الذكر من القلة إلى الكثرة، فالطائفون أقل من العاكفين؛ لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة، والعكوف أو والاعتكاف يكون في المساجد كلها، والعاكفون أقل من الراكعين؛ لأن الركوع يكون في كل أرض طاهرة، وأما الاعتكاف

[1] تفسير الرازي: ٣٠٢/٢.

فلا يكون إلا في المساجد، والراكعون أقل من الساجدين؛ وذلك لأن لكل ركعة سجدتين، ثم إنَّ كل راكع لا بدَّ له أن يسجد، وقد يكون هناك سجود وليس له ركوع، كسجود التلاوة وسجود الشكر[1].

وربما يكون هذا من باب ذكر الحاجة الأشد إلى الأقل لمن يقوم بتطهير المسجد الحرام، فالطائف حول الكعبة حاجته إلى طهارة الحرم أشد؛ لأن صحن الطواف إذا لم يطهَّر سوف يؤثر في حركة الطواف حول الكعبة، وأيضاً لأن الطواف في المسجد الحرام أهم ما يميز المسجد الحرام عن بقية مساجد الأرض، فالاعتكاف في كل مسجد، فضلاً عن ذلك فالطائف حاجته إلى الطهارة أكثر من المعتكف، فالمعتكف ربما يمكث في المسجد مدة من غير طهارة الحدث الأصغر، بينما الطائف تلازمه الطهارة من الحدثين الأصغر والأكبر معاً وهو في طوافه، وكذلك طهارة المكان الذي يطوف به.

وقد يكون الترقي في الصوت بحيث يصعد الصوت على نسق مخارجه وترتيبه، وقد ذكر البيضاوي هذا الترقي الصوتي في الحروف المقطعة التي افتتحت بها سورة البقرة، وهي الألف واللام والميم، فقال: ((وقيل: الألف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم الشفة وهو آخرها))[2].

وقد يكون الترتيب بحسب القوة والضعف، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، قال أبو حيان في علة ترتيب هذه الآية: ((وترتيب تقسيم هذه الحجارة ترتيب حسن جداً، وهو على حسب الترقي، فبدأ أولاً بالذي يتفجر منه الأنهار))[3].

٢. التنسيق:

هذا الموضوع ملموس في الآيات الأولى من سورة البقرة، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، فهذه الآية استوعبت جميع الأوصاف المحمودة؛ إذ وصف المؤمنون فيها بجميع العبادات؛ لأن العبادة نوعان:

---

١ انظر: البرهان: ٣/٢٥٠، التعبير القرآني: ٥٥.

٢ تفسير البيضاوي: ١/١٥.

٣ تفسير البحر المحيط: ١/ ٢٦٧.

بدنية ومالية، والبدنية قسمان: باطنية وظاهرية، والمالية قسمان: ما يشترك في المال والبدن كالحج والجهاد، وما ينفرد به المال كالزكاة والصدقة، فقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ، إشارةٌ إلى العبادة المالية، فاستوعبت الآية جميع الأقسام على الترتيب، حيث قدَّم عبادة الباطن؛ لأن الإيمان هو التصديق القلبي، وقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ، تصريح بعبادة الظاهر، و﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، عبادة الباطن على عبادة الظاهر، وعبادة البدن على عبادة المال[1]، قال أبو حيان في هذا الترتيب: ((وترتيب الصلاة على حسب الإلزام، فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائماً، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات، والنفقة لازمة في بعض الأوقات، وهذا من باب تقديم الأهم فالأهم))[2].

وتنسيق المفردات في التركيبات القرآنية استوقفت العلماء والباحثين للتأمل فيها، فمن ذلك ما يحدثنا عنه الرافعي بقوله: ((ولهذا ارتفع -القرآن- إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعة فيه فتخرجه من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم))[3].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، فالمغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة[4]، فرتبتها بعدها، ومن هذا النوع تقديم اسم الله (السميع) على اسمه: (العليم) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، فنسق هاتين المفردتين في ضوء رتبتهما في المعنى والسياق؛ إذ أنه خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإنَّ من سمع حسّك وخفيّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك أنه يعلم، وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن، وواقعاً على ما قرب وشطن، ولكن ذكر السميع أوقع في باب الخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم[5]، ويمكن أن يقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه[6].

---

١ انظر: أثر البلاغة في تفسير الكشاف: ٦٩-٧٠.
٢ تفسير البحر المحيط: ٤١/١.
٣ إعجاز القرآن: ٢٥٧.
٤ انظر: التبيان: ١٥٠، البرهان: ٢٤٩/٣.
٥ انظر: التبيان: ١٥٠، البرهان: ٢٤٩/٣.
٦ انظر: التعبير القرآني: ٥٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: ٢٤]، فقال: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾، قبل أن يتم الكلام الأول، وكان تأخير الجملة ممكناً بحيث يقول: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾؛ ولكن لهذا التقديم والتأخير تأثير في النظم، يجعل له في القلوب من الجلالة والتفخيم والرونق في تنسيق المفردات وحسن ترتيبها مما لا يعبر عنه بوصف ولا يعرف له سبب ظاهر إلا تجنيس الازدواج بقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[1]، فمجئ ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ بعد ﴿لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾ للتأكيد عن عجز الناس عن الإتيان بسورة من القرآن سواء في الحاضر أو في المستقبل التأبيدي.

٣. العلة والسببية:

تقدم العلة والسببية على المعلول والمسبب كتقدم المضيء على الضوء، وليس تقدماً بالزمان؛ لأن جرم الشمس لا ينفك عن الضوء، ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩، ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٦٠]؛ لأنه عزَّ فحكم[2]، وكتقديم العليم على الحكيم في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]؛ لأن الإحكام والإتقان ناشئ عن العلم[3].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالمراد بالصبر هنا الصوم؛ وإنما قُدِّم على الصلاة لأن تأثير الصوم في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، ونفي الأول مقدم على إثبات الثاني، وإن كانت الصلاة أهم من الصيام[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقدَّم التوابين على المتطهرين؛ لأن التوبة سبب الطهارة[5].

ومن تقديم العلة على المعلول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٤٠]، قيل: إنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً، والتقدير: ومن أظلمُ عندَ الله ممَنْ كتمَ شهادةً حصلتْ عنده، والمعنى: لو كان إبراهيم وبنوه هوداً أو نصارى ثم إنَّ الله كتم هذه الشهادة لم يكن أحد ممن يكتم الشهادة أظلم منه؛ ولكن لما

---

١ انظر: أثر البلاغة في تفسير الكشاف: ٤٣.
٢ انظر: البرهان: ٢٤٧/٣، معترك الأقران: ١٣٤/١.
٣ انظر: البرهان: ٢٤٧/٣، معترك الأقران: ١٣٤/١.
٤ انظر: تفسير الرازي: ٣٣٥/١.
٥ انظر: البرهان: ٢٤٧/٣، معترك الأقران: ١٣٤/١.

استحال على الله ذلك مع عدله وتنزهه من الكذب علمنا أن الأمر ليس كذلك[1].

وحين ذكر الله تبارك وتعالى سلسلة أحوال البشرية فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، أشار إلى السلسلة العجيبة المترتبة التي تدلت من أنابيبها عناقيد النِّعَم من الخالق جلّت قدرته الذي مزج الأضداد في عالم الكون لحِكَم دقيقة، ووضع أسباباً ظاهرية ووسائط إظهاراً لعزته، فترتبت سلسلة العلل والمعلولاتً، ثم لما تصفت الكائنات، وتميزت وتحزبت في الحشر ارتفعت الأسباب وأسقطت الوسائط[2].

ثالثاً: مقتضى السياق

١. المناسبة:

المناسبة ما أشكل معناه بحسب الظاهر؛ فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتضح، وهو جدير بأن يفرد بالتصنيف كما عبَّر عن ذلك السيوطيّ.

فالتقديم يكون لمناسبة المتقدم لسياق الكلام فمن ذلك قوله تعلى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢]، فهذه الآية مؤخرة في التلاوة مقدمة في المعنى[3]، لأنه كان الاختلاف في القاتل قبل ذبح البقرة؛ وإنما أخر في الكلام لأنه لما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة: ٦٧]، علم المخاطبون أن البقرة لا تذبح إلا للدلالة على قاتل خفيت عينه عندهم، فلما استقر علم هذا في نفوسهم اتبع بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: ٧٢]، فسألتم موسى فقال:﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

ومن ذلك محاجة سيدنا إبراهيم للطاغية الكافر النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلأي سبب قُدِّم في هذه الآية ذكر الحياة على الموت؟ والجواب: إنما هو للمناسبة المقتضية لحالة الحوار في الآية، لأن المقصود من ذكر الدليل إذا كان هو الدعوة إلى الله تعالى وجب أن يكون الدليل في غاية الوضوح لا سيَّما والمخاطب في غاية

١ انظر: تفسير الرازي: ٥٠٧/١.
٢ انظر: إشارات الإعجاز: ٢٧٧-٢٨٧.
٣ انظر: معترك الأقران: ١٣٠/١.

الغباوة، ولا شكَّ أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة[1].

وهناك مناسبة بين الألفاظ في التقديم والتأخير كقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾[البقرة: ١٩]، فمناسبة البرق لوجود الرعد، ومناسبة الرعد لوجود الظلمات، فقدم هذه وأخر تلك مناسبة بين الألفاظ، وهذا التقديم والتأخير لأجل الحالة الجوية -إن صحَّ التعبير- أثبتها العلم الحديث، فإذا ما تشكّل السحاب -الصيّب- من بخار الماء المنتشر في الهواء صار قسم منه حاملاً للإلكتريك المنفي، وقسم منه حاملاً للإلكتريك المثبت، فعندما يتقاربان يتصادمان دفعة فيتولد البرق، ثم بالهجوم والانقلاع دفعة واحدة وامتلاء موضعه بآخر لعدم الخلو يهتز وتتموج الطبقات فيتولد صدى الرعد؛ ولكن لما كان الصوت أسرع من الضوء فإننا نرى البرق ثم نسمع صوته[2].

٢. السبق:

يأتي التقديم ليراعي السبق في الزمان في مواضع، فقد تقدّم ذكر إبراهيم على إسماعيل على إسحاق على يعقوب على الأسباط، فقال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

أو يكون التقديم باعتبار أن الإنزال كان أسبقَ، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ ﴾ [البقرة: ٨٧]، أو باعتبار الوجوب والتكليف كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]، في تقديم السعي بالصفا على المروة، ولذلك كان رسول الله يقول عند الصفا: (نبدأ بما بدأ الله به)[3].

وقد قدَّم الله السنَةَ على النوم لسبقها عليه، فقال سبحانه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، في مراعاة الترتيب الوجودي[4]؛ لأن السِنَةَ وهي النعاس تسبق

١ انظر: تفسير الرازي: ٣٢٤/٢.
٢ انظر: إشارات الإعجاز: ١٧٥.
٣ سنن النسائي: ١٨٨/٥.
٤ انظر: جواهر البلاغة: ١٤٢.

النوم، فبدأ بها ثم بالنوم[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قدَّم القبض لأن قبله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وكان هذا بسطاً فلا يناسب تلاوة البسط فقدَّم القبض لهذا، وللترغيب في الإنفاق؛ لأن الممتنع منه سببه خوف القلة، فبيّن أن هذا لا ينجيه، فإن القبض مقدر ولا بدَّ[2].

وحين قدّم ذكر الحياة على خلق الأرض والسماء في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ [البقرة: ٢٨-٢٩]، قال الرازي: ((اعلم أن هذا هو النعمة الثانية التي عمّت المكلفين بأسرهم، وما أحسن ما راعى الله سبحانه وتعالى هذا الترتيب، فإنَّ الانتفاع بالأرض والسماء إنما يكون بعد حصول الحياة، فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولاً، ثم أتبعه بذكر السماء والأرض))[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فاستوفى بذلك أقسام الزمان في السبق، فإيمان هؤلاء المؤمنين بما أنزل على محمد إيمان في الحال، وما أنزل من قبله إيمان في الماضي، وإيمانهم بالآخرة إيمان في الاستقبال[4]، وإذا نظرت بين معنى هذه الآية وبين قول زهير بن أبي سلمى وهو أجلّ بيت جاء فيه صحة تقسيم الزمان على الأسبقية بقوله[5]:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عَمِ

٣. رعاية الفواصل:

لا يختلف اثنان في أن الفواصل القرآنية لها إيقاعها الفريد وبلاغتها العليا[6]، وهذه الفواصل ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه

---

١ انظر: التعبير القرآني: ٥١.
٢ انظر: البرهان: ٢٦٣/٣.
٣ تفسير الرازي: ٢٤٩/١.
٤ انظر: أثر البلاغة في تفسير الكشاف: ٧١.
٥ انظر: ديوان زهير بن أبي سلمى: الموسوعة الشعرية الشاملة.
٦ انظر: الإعجاز البياني للقرآن: ٢٣٥.

بما ليس وراءه في العجب مذهب[١].

وقد أخذ حرف (النون)[٢] النصيب الأكبر لفواصل سورة البقرة، ثم جاء على حدِّه حرف (الميم)[٣]، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى أو بالمد، وهما كذلك طبيعيان في القرآن الكريم[٤].

ولعلَّ هذا من أسباب تقديم هذين الحرفين على غيرهما في كثرة ورودهما، ثم الأحرف الأخرى وهي: (الراء)[٥]، و(الباء)[٦]، و(الدال)[٧]، و(اللام)[٨]، و(القاف)[٩]، قال العلماء: ((أكثر في القرآن ختم الفواصل بحرف المد واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك))[١٠]، وهذا واضح جداً في فواصل سورة البقرة.

وقد وجدت في سورة البقرة تغييراً في بعض الأحكام والقواعد النحوية لأجل الفاصلة القرآنية، فعلى سبيل المثال لا الحصر في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ **[البقرة: ٣]**، قدَّم مفعول الفعل دلالة على كونه أهم، وأضاف البيضاوي احتمالاً آخر وهو: ((المحافظة على رؤوس الآي))[١١].

الخاتمة:

إنَّ الله تعالى لما اختار اللغة العربية لتكون لغة القرآن الكريم فإنما كانت هناك رعاية لقواعد اللغة العربية والأساليب النحوية والطرائق اللغوية عند العرب، وإذا ما خالفها القرآن الكريم فإنما هو الوجه الأفصح والأصح قرآنياً لا عربياً، وظاهرة التقديم والتأخير معهودة في لغة العرب قبل الإسلام، وكانوا يعتنون به نحوياً وبلاغياً، وعند اختياري لسورة البقرة

١ انظر: إعجاز القرآن: ٢٤٦.
٢ ١٩٥ موضعاً في سورة البقرة.
٣ ٥٣ موضعاً في سورة البقرة.
٤ انظر: إعجاز القرآن: ٢٤٦.
٥ ٢٠ موضعاً في سورة البقرة.
٦ ٩ مواضع في سورة البقرة.
٧ ٧ مواضع في سورة البقرة.
٨ موضع واحد في سورة البقرة، الآية: ١٠٨.
٩ موضع واحد في سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
١٠ إعجاز القرآن: ٢٤٦.
١١ تفسير البيضاوي: ١٩/١.

نموذجاً لهذا الموضوع فإنني وجدت ما يقرب من نصف آيات سورة البقرة كان فيها تقديم وتأخير، وهذا العدد شجعني لدراسة هذا الموضوع وبحثه والاهتمام به.

المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ت٩١١هـ، دار الندوة الجديدة، بيروت–لبنان، د. ت.

أثر البلاغة في تفسير الكشاف، د. عمر الملا حويش، دار البصري، بغداد–العراق، ١٣٩٠هـ–١٩٧٠م.

إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، دار الأنبار، بغداد–العراق، ط/١، ١٤٠٩هـ–١٩٨٩م.

الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط/٨، ١٣٨٤هـ–١٩٦٥م.

إعراب القرآن، المنسوب للزجاج، تحقيق: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة–مصر، د. ت.

الإعلام والاهتمام بجمع فتاوى شيخ الإسلام أبي يحيى زكريا بن محمد الأنصاريّ ت٩٢٦هـ، تقديم وترتيب: أحمد عبيد، عالم الكتب، ط/٢، ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م.

ألفية ابن مالك في النحو، لمحمد بن مالك الطائيّ الأندلسي ت٦٧٢هـ، مكتبة النهضة، بغداد–العراق، د. ت.

الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لأبي البركات الأنباري ت٥٧٧هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة بمصر، ط/٣، ١٣٧٤هـ–١٩٥٥م.

البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشيّ ت٧٩٤هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر، ط/١، ١٣٧٧هـ–١٩٥٨م.

التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري ت٦١٦هـ، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/١، ١٣٨٠هـ–١٩٦١م.

تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، لمحمد بن مالك الطائيّ الأندلسي ت٦٧٢هـ، تحقيق:

محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ط/١، ١٩٨٦-١٩٨٧م.

تفسير ابن كثير المسمى بتفسير القرآن العظيم، لابن كثير الدمشقي ت٧٧٤هـ، دار المعرفة، بيروت-لبنان، ط/٢، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ت٧٥٤هـ، مطابع النصر الحديثة، الرياض، د. ت.

تفسير البيضاوي، للقاضي أبي سعيد الشيرازي البيضاوي ت٧٩١هـ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط/١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

تفسير الرازي، المسمى بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، لفخر الدين الرازي ت٦٠٤هـ، المطبعة الخيرية، مصر، ط/١، ١٣٠٧هـ.

تفسير الطبري المسمى بجامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبريّ ت٣١٠هـ، تحقيق: محمود أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، د. ت.

تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام جار الله الزمخشري ت٥٢٨هـ، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، د. ت.

تفسير النسفي المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات النسفي ت٧٠١هـ، مؤسسة الرسالة، المكتبة الأموية، بيروت-دمشق، مكتبة الغزالي-حماة، د. ت.

توشيح شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام، الشيخ عبد الكريم الدبان، بغداد، د. ت.

الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي، ط/١٢، د. ت.

حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، لمحمد الدمياطي ت١٢٨٧هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٩هـ-١٩٤٠م.

حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، د. ت.

دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني ت٤٧١هـ، شرح: محمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة القاهرة، مصر، ط/١، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

سنن النسائي بشرح الإمام السيوطي، وحاشية السندي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-

لبنان، د. ت.

شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/٢، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبعة السعادة، ط/١٤، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م.

شرح التصريح على التوضيح، لخالد الأزهري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ط/١، ١٣٧٤هـ-١٩٥٤م.

شرح اللمحة البدرية في علم العربية، لابن هشام الأنصاريّ ت٧٦١هـ، تحقيق: د. هادي نهر، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

شرح المفصل، لابن يعيش النحوي ت٦٤٣هـ، المطبعة المنيرية في مصر، د. ت.

صحيح مسلم بن الحجاج النيسابوري ت٢٦١هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط/١، ١٣٧٥هـ-١٩٥٦م.

علل التعبير القرآني عند الزمخشري، أسعد عبد العليم السعدي، رسالة ماجستير في جامعة بغداد، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة العربية، ٢٠٠٠م.

فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٧٨هـ-١٩٥٩م.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير ت٦٣٧هـ، د. أحمد الخوفي ود. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، مطبعة الرسالة، ط/١، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

المشكاة الفتحية على الشمعة المضية، السيوطي ت٩١١هـ، لمحمد أبي حامد البديري الدمياطي ت١١٤٠هـ، تحقيق: هشام سعيد النعيمي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

مشكل إعراب القرآن، لمكي بن أبي طالب القيسي ت٤٣٧هـ، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

معاني النحو، للفراء ت٢٠٧هـ، عالم الكتب، بيروت، ط/٢، ١٩٨٠م.

معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي ت٩١١هـ، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط، ١، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري ت٧٦١هـ، تحقيق: د. مازن

المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، ط/٦، ١٩٨٥م.

مفتاح العلوم، لأبي يعقوب السكاكي ت٦٢٦هـ، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط/١، ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.

المقرب، لابن عصفور ت٦٦٩هـ، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري وعبدالله الجبوري، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، د. ت.

ملحة الإعراب في نخبة من سور الكتاب، لمحمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرياسي، مطبعة الآداب، النجف–العراق، د. ت.

المنهاج في القواعد والإعراب، لمحمد الأنطاكي، دار الشروق، بيروت، ط/٤، د. ت.

الموسوعة الشعرية الشاملة، إصدار رقم: ١. ٠، أبو ظبي–الإمارات العربية المتحدة.